Dergiabant

2024, 12(1): 92-111, doi: 10.33931/dergiabant.1429808

مدينة حلب في روايات أحمد زياد مُحَبِّك

Ahmed Ziyad Muhabbik'in Romanlarında Halep

Mohamad ALAHMAD[1]

Geliş Tarihi (*Received*): 01.02.2024 **Kabul Tarihi (*Accepted*):** 03.04.2024 **Yayın Tarihi (*Published*):** 31.05.2024

ملخص: تناولت الدراسة مدينة حلب في روايات أحمد زياد محبك، وتوقفت عند بناء المكان الحلبي في هذه الروايات، ورصدت فيه قلعة حلب وأحياءها وشوارعها وحدائقها ومساجدها وغيرها من الأماكن العامّة فيها. وتتبعت الدراسة البيت الحلبي بنوعيه القديم والحديث. وتتبعت الدراسة أيضًا أسماء المجتمع الحلبي الروائي، وظهر للباحث أنها تنتمي إلى عدة منظومات، ولا سيما المنظومة الدينية والاجتماعية والمستحدثة. وتوقفت الدراسة عند ملابس المجتمع الحلبي ومعتقداته وأطعمته وأشربته وأمثاله الشائعة بين أفراده وعاداته وتقاليده والأغاني التي اعتاد عليها هذا المجتمع. وتوصلت الدراسة إلى عدد من النتائج يأتي في مقدمتها أنّ مدينة حلب شكّلت المركز الذي دارت حوله معظم الأحداث التي تضمنتها روايات أحمد زياد محبّك، وبدا الروائي حريصًا على تقديم مدينة حلب على نحو يكاد يطابق الواقع، وبدا أنّه يريد أن يحفظ هذه المدينة رواية كي يتسنى للقارئ معرفة هذه المدينة ويكوّن صورة واقعية عنها خلال الفترة الممتدة منذ منتصف القرن العشرين حتى أوائل القرن الحادي والعشرين.

الكلمات المفتاحية: اللغة العربية، الرواية، مدينة حلب، أحمد زياد مُحَبِّك.

&

Öz: Bu çalışmada Ahmed Ziyad Muhabbik'in romanlarında Halep şehri ele alınmış, bu romanlarda Halep mekanlarının yapısı üzerinde durulmuş; buna istinaden Halep'teki hem eski hem de modern evler, Halep Kalesi, mahalleleri, sokakları, bahçeleri, camileri ve diğer halka açık yerleri gözlemlenmiştir. Bunun yanı sıra araştırmada romandaki Halep halkının isimleri incelenmiş ve neticede bu karakteristik isimlerin başta dini, sosyal ve modern olmak üzere birçok sisteme ait olduğu sonucuna ulaşılmıştır. Ayrıca araştırmada romandaki Halep toplumunun giyim-kuşamları, inançları, yiyecek içecekleri, halk arasında yaygın olan atasözleri, örf ve adetleri ile bu toplumun alışık olageldiği şarkılar üzerinde durulmuştur. Araştırmamızın sonucunda pek çok neticeye ulaşılmış olup bunlardan en önemlisi Ahmed Ziyad Muhabbik'in romanlarında yer alan olayların çoğunun geçtiği merkezin Halep şehri olmasıdır. Görünüşe göre yazar, yirminci yüzyılın ortasından yirmi birinci yüzyılın başlarına kadar uzanan süreçte okuyucunun bu şehri tanıması ve zihninde bu şehrin gerçekçi bir resmini oluşturabilmesi için bu şehri romansal olarak korumak istemiştir.

Anahtar Kelimeler: Arap Dili ve Belagati, Roman, Halep, Ahmed Ziyad Muhabbik.

Atıf/Cite as: Alahmad, Mohamad. "مدينة حلب في روايات أحمد زياد مُحَبِّك". *Dergiabant* 12/1 (Mayıs 2024), 92-111. doi: 10.33931/dergiabant.1429808

İntihal-Plagiarism/Etik-Ethic: Bu makale, en az iki hakem tarafından incelenmiş ve intihal içermediği, araştırma ve yayın etiğine uyulduğu teyit edilmiştir. / This article has been reviewed by at least two referees and it has been confirmed that it is plagiarism-free and complies with research and publication ethics. https://dergipark.org.tr/tr/pub/dergiabant/policy

Copyright © Published by Bolu Abant Izzet Baysal University Faculty of Theology, Since 2013 – Bolu

[1] Doç. Dr., Mohamad Alahmad, Gümüşhane Üniversitesi, mohamadalahmad@gumushane.edu.tr.

1. مقدمة

المدينة مكان يعيش فيه عدد كبير من الناس، بكثافة سكانية مرتفعة بالنسبة إلى مساحة الأرض التي يعيشون عليها، وغالبًا ما يسكن بعضهم قرب بعضهم الآخر في أبنية ذات طوابق وشقق متلاصقة. وتحتوي المدن عامّة على أمكنة عامة كثيرة، ولا سيما الساحات والحدائق والمطاعم والفنادق والنوادي وأمكان التسلية والترفيه وغيرها. وتتنوع في المدن الثقافات في شتى مجالات الحياة ولا سيما التقاليد الاجتماعية وأساليب التعامل مع الآخرين والألبسة والأطعمة.

إنّ هذه المزايا التي تتمتع بها المدن عامّة تجعل منها بيئة خصبة للرواية كي تقيم علاقة معها، فتستفيد منها في بناء أسلوب حياة على منوال الحياة في المدينة؛ فالرواية كما هو معروف من أكثر الأجناس الأدبية من حيث تعدد الشخصيات وتنوع الأحداث، وهذا التنوع وذلك التعدد يحتاجان إلى مكان مناسب، وليس أنسب من المدينة لتعمل الرواية على تقليده، أو البناء على منواله.

وثمة أساليب متعددة للروائيين حين يسعون إلى تقديم المدن في رواياتهم، فبعضهم يهتم بتقديم تفصيلات عن المدينة، ولا سيما شوارعها ومقاهيها ومسارحها ودور السينما فيها وما إلى ذلك، ويسعى بعضهم إلى إبراز المدينة بأمكنتها القديمة والحديثة، وساكنيها بأنواعهم وأنماطهم وثقافاتهم وطبقاتهم الاجتماعية، وما تمتاز به كل طبقة من هذه الطبقات، والصراع بين هذه الطبقات، ويسعى آخرون إلى إبراز المدينة بوصفها معلمًا تاريخيًّا أو علميًّا أو فكريًّا. وغير ذلك مما يظهر في الأعمال الروائية. والروائيون في هذا كلّه قد يسعون إلى النسج على منوال مدينة ما فتأتي المدينة الروائية مشابهة للمدينة الواقعية، وقد يبتعدون عن المدن الواقعية وينشئون مدنهم الروائية من وحي الخيال.

إنّ الروائي حين يسعى إلى جعل مدينة ما مسرحًا لأحداث رواياته فإنه يسعى في الوقت نفسه إلى بلوغ هدف ما، فإن كان هدفه حفظ صورة المدينة روائيًّا وتقديمها على شكلها الحقيقي للقارئ راح يرسم مدينته المتخيلة على نحو يقارب المدينة الواقعية، وينسج شخصيات وأحداثًا من وحي واقع هذه المدينة. ومن هنا نجد أنّ المدينة في بعض الأعمال الروائية ليست مجرد إطار أو مكان لأبطال وأحداث، بل هي بطل وفضاء لذاتها. الفضاءُ الّذي "لا يخضعُ للمعنى، إنّما يمضي مع المعنى في سياقٍ واحد، إنّه ناتِجٌ حتْمًا عن تغيير موقف الإنسانِ من الواقع، غير أنّه على مستوى النّصّ لا يظهر تابعًا لأيّ مضمون أو موقفٍ سابقٍ عليه، لأنّه هو نفسُه يصبح مصدر المعنى أو على الأصحّ مصدر المعاني المتعدّدة اللاّمحدودة".[2]

وقد لعبت الرواية في كثير من الأوقات دورها التوثيقي للمدينة وعمرانها؛ فالتسجيل الزماني والمكاني يحول الرواية إلى فن فوتوغرافي بصورة تتجنب جمود وبرود الصورة الفوتوغرافية وحياديتها؛ لأنها على الرغم من توثيقها الزماني والمكاني، فإنها تستعيد ديناميكيتها وحيويتها عندما تبدأ عملية التلقي. وعندما يتلقاها القارئ بتجاربه ومشاعره يبدأ في تفكيك الصورة، وإعادة بنائها ومزجها بما يريد من معان. وهنا يتحول العمل الروائي إلى كيان صلب حافظ لتاريخ مكاني وإنساني. فبينما تتعرض المدن والسياقات العمرانية والإنسانية بها للسحق والدمار يبقى توثيقها الإنساني التحليلي المتجدد في الأعمال الروائية.

إنّ الرواية قادرة على حفظ المدينة بتوثيق روح هذه المدينة، ومراحل الحياة فيها، وكذلك قادرة على توثيق مراحل فقدان هذه الحياة أو فقدان أجزاء منها، وذلك يتم من خلال تشكيل هذه المدينة وتشكيل أرواح القاطنين فيها روائيًّا.

ومدينة حلب إحدى المدن المهمّة التي وثّقتها الرواية العربية، وبرزت بقسميها القديم والحديث، فبدا القسم القديم تتوسطه قلعتها الشامخة التي تحيط بها أحياؤها العتيقة وأمكنتها الأثرية المتعددة، وبيوتها القديمة، وظهر قسمها الحديث بأحيائه الجديدة وأبنيته ذات الطوابق وشققه الحديثة ذات المحتويات العصرية. والروائي أحمد زياد محبّك أحد هؤلاء الأدباء الذي ألهمتهم هذه المدينة الإبداع، فراح

[2] ر. م. ألبريس، الاتّجاهات الأدبيّة في القرن العشرين، ترج. جورج طرابيشي، ط1 (بيروت: منشورات عويدات، بيروت، 1965)، 17.

يرسمها في معظم أعماله الروائية بوصفها البطل الذي حاز على اهتمامه الكبير، ويقدّمها بأمكنتها القديمة والحديثة، وساكنيها بألبستهم ومعتقداتهم وأطعمتهم وأشربتهم والأمثال الشائعة بينهم وعاداتهم وتقاليدهم والأغاني التي اعتادوا عليها.

2. نظرة تاريخية في النشأة والتسمية

يعود أقدم ذكر لمدينة حلب إلى ما قبل القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد، في عهد الملك الآكادي ريموش بن سارغون (2530–2515 ق.م) الذي استولى على حلب التي كانت آنذاك مدينة مزدهرة.[3]

وثمة قولان لدى ابن العديم (ت 1262م) حول باني حلب، الأول: أن باني حلب الأول هو بلوكوس الموصلي، وكان أول ملكه في سنة 3989 لآدم عليه السلام. والثاني أنه حلب بن المهر بن حيص بن عمليق من العمالقة، وإليه ينسب سبب تسميتها بـ(حلب).[4] ويرجح آخرون أن حلب بن مهر العمليقي نقّذ بناءها بأمر من الملك بلوكوس الموصلي. ويرى بعض المؤرخين أن الأثوريين هم الذين بنوا حلب بأمر بتحوس ملك أثور، ويرى آخرون أن الحثيين بنوها بدليل حجر جامع القيقان والمعبد الحثي المكتشف في القلعة. وقد بلغت حلب أوج ازدهارها في عهد الملك يارليم ليم ملك مملكة يمحاض، وهو أول السلالة العمورية، وكان معاصرا لحمورابي البابلي، وكانت حلب وقتئذ على علاقة جيدة مع بابل. وقد خربت حلب على فترات، وجدّد بناءها سلوقس اليوناني عام 312 ق.م، وإليه ينسب بناء قلعتها أيضا.[5]

وفيما يخص دخول المسلمين حلب، فقد جاء في الأخبار أن أبا عبيدة بن الجراح سار بالجيش بعد فراغه من اليرموك إلى حمص ففتحها، ثم بعث خالد بن الوليد على مقدمة الجيش إلى قنسرين، فنزل بالحاضر، وواجهه فيها الروم وانتصر عليهم. ثم سار خالد نحو قنسرين ففتحها، وتوجه بعدها نحو حلب، فتحصن منه أهلها. وحين علموا بوصول أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنه طلبوا منه الصلح والأمان، فقبل منهم أبو عبيدة وصالحهم، ودخل المسلمون حلب من باب أنطاكية.[6]

وما تمتاز به حلب أنها لم تصبح في يوم من الأيام مدينة ميتة رغم الكوارث وعاديات الزمن، وما زالت الأحياء السكنية منذ نشأتها وحتى الوقت الحاضر تمتد فوق المساحات قرب نهر قويق. وما حفظها رغم اكتساحها من جيوش عديدة في عصور مختلفة أمران؛ الأول: أنها كانت مدينة مقدسة، فهي معقل الإله الحلبي الشهير حَدَد الذي لم يكن ينظر إليه على أنه مجرد إله للخصب والأمطار والرعد والصاعقة والجبال فحسب، بل على أنه كبير الآلهة. وقد احتفظت حلب بهذه المكانة الدينية خلال وجودها الطويل. وحتى بعد الإسلام بقيت حلب مركزًا دينيًّا كبيرًا يتضمن العديد من المساجد والزوايا والتكايا والقبور المقدسة التي تعد مقصدًا للكثير من الزائرين. والثاني: أنها مدينة ذات قيمة استراتيجية مهمة، فهي تشرف على الطريق الواصل بين ممرات طوروس شمالًا ومصر جنوبًا وما بين البحر غربًا ومخاضات الفرات شرقًا.[7]

وقد جاء في التاريخ أن الفيلسوف أرسطو (ت 322 ق.م) أعجب بها من دون سائر المدن التي اكتسحها الإسكندر، فاستأذنه في البقاء فيها، وقد كان حينئذ مريضًا بمرضٍ لا يشفيه إلا هواء حلب.[8]

أما فيما يخص تسميتها بحلب فقد ذكرنا أن ثمة من قال بأنها سميت بهذا الاسم نسبة إلى بانيها حلب بن مهر العمليقي. وثمّة آراء أخرى في تسميتها؛ فقد قال الزجاجي (ت 340هـ) سميت حلب لأن إبراهيم عليه السلام كان يحلب فيها غنمه في الجمعات ويتصدق به، فيقول الفقراء حلبَ حلبَ، فسميت به.[9] وهو ما ذكره ابن العديم في كتابه، يقول:

---

[3] Mohamad Alahmad, "Modern Arap Şiirinde Halep İmajı", *Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi* 12 (*Aralık, 2020*), 88-89.

[4] كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، ط1 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1996)، 8-9.

[5] خير الدين الأسدي، أحياء حلب وأسواقها (دمشق: منشورات وزراة الثقافة، 1984)، 18.

[6] ابن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، 15-16.

[7] الأسدي، *أحياء حلب وأسواقها*، 19-25.

[8] ابن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، 8.

"اسم حلب عربي لا شك فيه. وكان لقب لتل قلعتها. وإنما عُرف بذلك لأن إبراهيم الخليل– صلوات الله عليه– كان إذا اشتمل من الأرض المقدسة؛ ينتهي إلى هذا التل فيضع به أثقاله، ويبث رعاءه إلى نهر الفرات وإلى الجبل الأسود. وكان مقامه بهذا التل يحبس به بعض الرعاء؛ ومعهم الأغنام والمعز والبقر. وكان الضعفاء إذا سمعوا بمقدمه أتوه من كل وجه من بلاد الشمال. فيجتمعون مع من اتبعه من الأرض المقدسة لينالوا من بره؛ فكان يأمر الرِّعاء بحلب ما معهم طرفي النهار، ويأمر ولده وعبيده باتخاذ الطعام فإذا فرغ له من ذلك أمر بحمله إلى الطرق المختلفة بإزاء التل، فيتنادى الضعفاء: "إن إبراهيم حلبَ"، فيتبادرون إليه".[10]

وقد أورد المؤرخون اسماء أخرى سميت بها هذه المدينة، منها أن الأكاديين كانوا يسمونها أرمان، ومنها أيضًا أنّها أطلق عليها زمن الإسكندر اسم بيرويا نسبة إلى مدينة بيروه مسقط رأس فيليب والد الإسكندر.[11]

3. بناء المكان الحلبي

المكان مكوّن أساسي في العمل الروائي، وله "أهمية كبرى في تأطير المادة الحكائية وتنظيم الأحداث والحوافز".[12] ويدخل المكان في الرواية في علاقات متعددة مع مكوناتها الأخرى، "وعدم النظر إليه ضمن هذه العلاقات والصلات التي يقيمها؛ يجعل من العسير فهم الدور النصي الذي ينهض به داخل السرد".[13] وتختلف أهميّة المكان بين رواية وأخرى؛ ففي حين يُكتفى في بعض الروايات بوظيفته المعتادة في كونه مسرحًا لأحداث الرواية، يتقدّم في بعضها الآخر ليبرز بوصفه بطل الرواية والهدف الرئيس في تأليفها. وقد يؤدّي المكان دورًا مهمًّا في الفهم الشامل للنصّ، وقد لا يكون كذلك. ومن هنا يمكننا القول: إنّ الحديث عن المكان الرّوائيّ هو حديث عن عنصرٌ مهمّ في فهم النصّ الروائي وفهم لعبته التوليفية؛ لأن المكان الروائي لا يقتصر على كونه إطارًا جغرافيًّا للسرد، بل عنصر بنية في الوقت نفسه.

إنّ أهميّة المكان لا تنبعثُ من تفرُّده بل من انصهاره مع العناصر الأخرى الّتي هي بمثابة عناصرَ حكائيّة سرديّة، ومن ثمّة يمكن الخلوص إلى "أنّ المكان لا يعيش منعزِلًا عن باقي عناصر السّرد وإنّما يدخل في علاقات متعدّدة مع المكوّنات الحكائيّة الأخرى للسّرد كالشّخصيّات والأحداث والرّؤيات السّرديّة".[14]

والرواية في مجملها، ترصد علاقة إنسان ما بمكان ما في تاريخ ما، هذا الرصد يمكن أن يتنوع ما بين ثلاثة احتمالات للتعامل مع إشكالية المكان؛ أولها: أن يكون هذا المكان واقعيًّا حقيقيًّا له بيئته المادية الملموسة والمعروفة في نطاق جغرافي معلوم، وثانيها: أن يكون المكان نسيجًا افتراضيًّا لعوالم خيالية لا واقعية، وثالثها: أن يكون التعامل مع المكان بوصفه نطاقًا استشرافيًّا مستقبليًّا. والمتتبع لمدينة حلب في روايات محبّك يجد أنها تنتمي إلى النوع الواقعي الحقيقي، والعارف لهذه المدينة يدرك صحّة ما نذهب إليه من خلال رسم الروائي لأحياء مدينة حلب وشوارعها وحدائقها وبيوتها وساكنيها.

ويبدو للباحث أنّ الروائي محبّك عاشق لمدينة حلب، وذلك من خلال ما جاء في مجمل أعماله الروائية، ولا سيما الحوار الذي أجراه على ألسنة بعض شخصياته في رواية "شقة على شارع النيل" الذي جاء فيه:

"أم جميل تقول لها: – أختي أم صلاح، أتمنى لو رسمتِ لوحة بالألوان المائية أو الزيتية لحلب، وتركت لوحات الكانافاه. أم صلاح تنظر في عيني أم جميل، ترسل زفرة طويلة، ثم تتكلم: . آه يا أم جميل، حلب لا تكفيها لوحة، حلب تحتاج إلى معرض لوحات زيتية ومائية.

---

[9] ياقوت الحموي، (حلب) *معجم البلدان*، 282 (بيروت: دار صادر، 1977)، 282.

[10] ابن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، 7.

[11] الأسدي، *أحياء حلب وأسواقها*، 22– 26.

[12] حسن بحراويّ، *بنية الشّكل الرّوائيّ*، ط2 (بيروت: المركز الثّقافيّ العربيّ، 2009)، 20.

[13] بحراوي، حسن: *بنية الشكل الروائي*، 26.

[14] سمر روحي الفيصل، *الرّواية العربيّة البناءُ والرّؤيا* (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، دمشق، 2003)، 72.

وتصمت ثم تضيف وهي، تشير إلى صدرها: – لوحة حلب محفوظة هنا في قلبي، في قلبك، في كل القلوب، وسيأتي يوم أرسم فيه لوحة لحلب، وأقدمها هدية لك".[15]

إن الروائي يريد أن يعبّر عن مقدار حبّه العظيم لمدينة حلب من خلال شخصيّات روايته "شقة على شارع النيل"، ويريد في الوقت نفسه أن يوصل رسالة للقارئ مفادها أنّ مدينة حلب تعيش في قلوب الحلبيين جميعًا.

1.3. قلعة حلب

برزت قلعة حلب خمس عشرة مرة في روايات محبك، حيث ذكرها الروائي ست مرّات في رواية "الكوبرا تصنع العسل"، دلّ بها في المرة الأولى إلى منزله في قوله: "أسكن وراء القلعة، في ساحة الملح، بجوار جامع الأطروش"[16]، وأشار في المرة الثانية إلى سكة الحديد التي "كانت تنطلق من وراء القلعة"[17]، ثم ذكرها أربع مرّات في حواره مع وداد، ومنه ما جاء في قوله:

"التفتي إلى شمالك يا وداد، انظري هناك إلى القلعة، وهي تشمخ في الطرف الشرقي، ووراءها يقع منْزلي، وأمسِ كنت أحدثك عنه. ما أبهى القلعة؟ كم هي رائعة وشامخة، حيثما سرنا في المدينة نراها، تطلُّ علينا من كلِّ الأطراف، وعندما نقبل على حلب، من أي جهة كانت، نراها تتوسَّط المدينة، ومن حولها تنتشر الأحياء والبيوت والمساجد والأسواق والعمارات، كالأم هي أو كالجدة، تلمُّ من حولها أولادها وأحفادها، تعطف عليهم، تظللهم، ترعاهم أحسُّ يا وداد الآن كأنَّني بدأت أميل إلى تصديق قصة البقرة الشهباء، وإبراهيم الخليل يصعد بها إلى القلعة كلَّ يوم، ويتجمع الناس، ينتظرون أن يسقيهم من لبنها".[18]

ويبدو للمتلقي أن الروائي شديد الإعجاب بالقلعة من خلال وصفه لها بالشموخ والعلو والأم الحنون، ويبدو أيضًا أن حبّ الروائي لمدينة حلب دفعه إلى ذكر قصة النبي إبراهيم الخليل والبقرة في تسمية مدينة حلب، تلك التي ذكرها ابن العديم في كتابه "زبدة الحلب من تاريخ حلب".[19]

وأورد الروائي القلعة تسع مرّات في رواية "شقّة على شارع النيل"[20]، وذلك في قوله على لسان دلال العقارات في هذه الرواية: "لولا الأبنية لرأيت قلعة حلب والفرافرة وجب القبة والصالحين وباب النيرب، حلب كلها أمامك"[21]، وقوله على لسان بطلة روايته (أم جميل): "ذكَّرْتَني، لما كنت طالبة في الصف الثالث الإعدادي، قمنا برحلة إلى حلب، زرنا فيها القلعة، وعلى برج من أبراجها كان يقف حجر كبير، ثلثه فوق الجدار، وثلثاه في الهواء، وقفت أتأمله، قالت لي المدرِّسة حينها: لا تخافي، هذا معلق هكذا من ألف سنة، وما وقع"[22]. وقوله على لسان بطل روايته (أبو جميل): "أنت الآثار شاغلة ذهنك اليوم، من قلعة حلب، إلى آثار تدمر"[23]، وقول إحدى شخصيات الرواية واصفًا شعره: "ولذلك لا أحبه عندما يطول، يصبح مثل السور حول القلعة"[24]، وقوله في حوار أجراه بين (أبو

[15] أحمد زياد محبّك، *شقّة على شارع النيل* (دمشق: دار أمل الجديدة، 2018)، 90.

[16] أحمد زياد محبّك، *الكوبرا تصمتع العسل* (حلب: منشورات دار القلم العربي، 1996)، 25.

[17] محبّك، *الكوبرا تصمتع العسل*، 75.

[18] محبّك، *الكوبرا تصمتع العسل*، 97-99.

[19] ابن العديم، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، 7.

[20] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 11، 21، 80، 151، 176، 198.

[21] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 11.

[22] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 21.

[23] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 80.

[24] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 151.

جميل) وزوجته (أم جميل): "أول مرة قلتِ عنها مثل قلعة حلب، ومرة ثانية شبهتها بآثار تدمر"[25]، وذكرها أربع مرّات خلال حديثه عن القصف الذي طالها بسبب الحرب.[26]

تبدو قلعة حلب للمتلقي من خلال ما جاء في روايات أحمد زياد محبك معلمًا أثريًّا قديمًا ومرتفعًا، تتوسط مدينة حلب، ويحيط به سور خاصّ بها، وتتنشر حولها أحياء هذه المدينة من جميع جهاتها. ويبدو للمتلقي صمود هذه القلعة وحفاظها على شكل بنائها رغم تعاقب عصور طويلة ونشوب حروب كثيرة وتعرّضها لكوارث طبيعية عديدة.

والعارف لمدينة حلب وقلعتها يدرك أنّ الروائي كان واقعيًّا في وصف القلعة، وأخلص في وصفه لشكل هذه القلعة وموقعها في وسط مدينة حلب كما هي في الواقع.

2.3. أحياء حلب

جعل الروائي مدينة حلب المكان الرئيسي في رواياته كلّها، وذكر الروائي معظم أحياء حلب، وكأنه أراد جعل رواياته وثيقة تاريخية لهذه المدينة العظيمة، وقد ذكرها بأسمائها الوقعية ومواقعها الحقيقية في مدينة حلب.

وحازت رواية "شقّة على شارع النيل" على القدر الأعظم من توثيق هذه الأحياء، وتضمنت حي الإسماعيلية، وحي الفرافرة، وجب القبة، والصالحين، وباب النيرب، وباب النصر، وباب أنطاكية، وحي الحمدانية، والملعب البلدي، وحي الكلاسة، وحي المشارقة، وبستان القصر، والفيض، والجميلية، والخالدية، والجابرية، والحميدية، وسيف الدولة، والإذاعة، وحيّ العقبة. وذكر الروائي في هذه الروائية أن حي الملعب البلدي أحد الأحياء الشعبية المكتظة بالسكان في مدينة حلب[27]، ووصف حي شارع النيل بأنّه طويل يمتد حتى جمعية الزهراء، وهو مليء بالحركة والحياة، ويستطيع الناظر من هذا الحي رؤية الحديقة العامة وساحة سعد الله الجابري والفندق السياحي.[28]

وتضمّنت رواية "حمامات بيض ونارجيلة" حي العرقوب، وحي الحمْدانية، وحي الشهباء. وقد ذكر الروائي محبّك أنّ حي العرقوب أقيم في مكان مرتفع يشرف على حلب كلّها، ويتضمّن هذا الحي كثيرًا من المعامل، ويحتوي بيوتًا أقامها أصحاب المعامل كي يكون سكنهم قريبًا من مكان عملهم. [29] وذكر الروائي في هذه الرواية سبب تسمية حي الحمدانية بهذا الاسم، وأشار إلى المساحة الواسعة التي يشغلها هذا الحي في مدينة حلب بقوله: "لا تنس سيف الدولة ابن مدينتنا حلب، وهو رمز من رموز التاريخ، ونحن أطلقنا اسمه على حي الحمْدانية، هذا الحي الحضاري الجديد، هو مدينة وليس مجرد حي، ونحن أقمنا له تمثالًا، ووضعناه في ساحة المشارقة، إحدى الساحات الرئيسة في مدخل حلب".[30]

واحتوت رواية "الكُوبْرا تَصْنَعُ العَسَلَ" أحياء: منتزه السبيل، وشارع الإذاعة، وباب الحديد، وباب النصر، وجادَّة الخندق، وباب الفرج، وحي الجميلية. وقد وصف الروائي في هذه الرواية أحياء حلب القديمة بقوله على لسان بطل الرواية (رياض): "ما أروع تلك الحارات والأزقة الشعبية القديمة! زرتها مرةً بصحبة أمي، لا أذكر المناسبة، وما تزال عالقة بذهني صورة الأزقة الضيقة، وهي مرصوفة ببلاطٍ أبيض نظيف، بيوتها متجاورة متلاصقة، جدرانها تَمُدُّ ظلالًا رطبةً ناعمة، كنت أشعر وأنا أدخلها بالهدوء والطمأنينة".[31] وذكر الروائي

[25] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 176.
[26] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 198.
[27] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 34.
[28] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 11-12.
[29] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة* (حلب: دار الفرقان، 2011)، 15.
[30] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 76.
[31] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 76.

على لسان بطل الرواية الأحياء التي كانت تمرّ بها الترماي[32] بقوله: "كانت تنطلق من وراء القلعة، ثم تَمُرُّ بساحة الملح، ثم بِجُبِّ القُبَّة، ثم بساحة باب الحديد، ثم تَمُرُّ أمام باب النصر، وتعبر جادَّة الخندق، لتمرَّ أمام مخفر باب الفرج، ثم تمر بشارع القوّتلي، أمام مديريَّتنا، وتجتاز ساحة سعد الله الجابري، أمام البريد، وينتهي خطُّها في حي الجميلية، كم كانت الرحلة فيها ممتعة".[33]

وقد عبّر الروائي عن حبّه الشديد لحلب وأحيائها في غير موضع في رواياته، وتتجلّى هذه المشاعر في رواية "الكوبرا تصنع العسل" من كلام الروائي الذي أجراه على لسان بطل روايته (رياض)، وذلك في قوله: "انظري يا وداد، كم حلب كبيرة وواسعة وجميلة! هناك، في الشمال الغربي، متنزه السبيل، وبجواره شقَّة أختك، وإلى الغرب قليلًا مستشفى الجامعة، حيث زرنا صالح، وهذا مبنى شهباء الشام، حيث سهرنا أول مرةٍ معًا، وهذا هو برج الإذاعة مطلًا على المدينة، وبجواره في شارع الإذاعة منْزلكم. التفتي إلى شمالك يا وداد"[34] وعبّر الروائي عن البهجه التي كان يشعر بها بطل روايته (رياض) وهو يراقب المارة والسيارات في شارع القوتلي بقوله: "في هذا الشارع – شارع القوتلي ... هذه سينما فؤاد، وتلك سينما الكندي، ... وهناك مطعم أبو نواس، وهذه محلات الألبسة والمرطبات والصحف والمجلات وأشرطة التسجيل والفيديو تتزاحم وتتنافس، كم الشارع جميل وحافل بالحياة؟ ضوضاء المارة وصخب السيارات وضجيجها إيقاع ناعم يتسرب إليَّ من وراء الزجاج، فأشعر به بهيجًا ممتعًا".[35]

وتتجلى مشاعر حبّ الروائي لحلب لمدينة حلب في أعلى صورها في رواية "حمامات بيض ونارجيلة"، وذلك من الكلام الذي أجراه على لسان بطل هذه الرواية (بكري) في قوله: "ليحفظك الله يا حلب، كم كنت هادئة، كم أنت الآن صاخبة، مزدحمة، شوارعك تغص بالسيارات، أنت في عمر الجدة، ولكن في نشاط هناء، كم كنت أتشهّى التجوال بسيارتي في شوارعك، أصل حتى أطرافك، أطوف حولك، كما يطوف الحجيج حول الكعبة".[36]

يبدو للباحث من هذا المقبوس أن الروائي شديد التعلّق بمدينة حلب؛ لهذا يوظّف بطله في الرواية ليدعو الله عز وجلّ كي يحفظها، ويتذكّر أيام كان يتجوّل في كل مكان فيها، ويطوف حولها كالحاج الذي يطوف حول الكعبة.

3.3. البيت الحلبي

حضور المسكن في الرواية أمر مهمّ لإقامة الشخصيات فيها، والمسكن لا يكتسب معناه ودلالته الشاملة في الرواية إلا بوجود ساكن يقيم فيه، ومعرفة مدى الانسجام بينهما. والروائي حين يُشكّل السكن في الرواية فإنه يحمّله جميع الدلالات الملازمة له، والتي تكون عادة مرتبطة بعصر من العصور، حيث تسود ثقافة معينة أو رؤية خاصّة للعالم.[37] "ويلعب المسكن دورًا مركزيًّا في تحديد معالم الهوية الثقافية للمجتمع، فالمسكن يدلّ على ساكنه، وله دور مهم في تحديد هوية الشخوص الذين يقيمون فيه. والروائي حين يبني المسكن الروائي فإنه يجعله مناسبًا لشخصياته، وغالبًا يلجأ إلى محاكاة الواقع والبناء على منواله".[38]

والباحث في روايات أحمد زياد محبّك يجد أن الروائي عني بوصف البيت الحلبي بنمطيه القديم والحديث، وجاء نمطه القديم في رواية "شقّة على شارع النيل" بوصف قدّمه بطلة الرواية (أم جميل) في قولها: "كنا نعيش في دار واسعة، فيها أكثر من ثلاث عشرة غرفة، ثماني غرف في الدور الأرضي، وخمس غرف في الدور الثاني ... كانت أسقفها خشبية ... وكنت أطل على فِناء الدار، حيث البركة

[32] حافلة كهربائية تسير على خطوط حديدية.

[33] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 76.

[34] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 98.

[35] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 99.

[36] محبّك، حمامات بيض ونارجيلة، 59.

[37] حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، ط3 (بيروت: المركز الثقافي العربي، 1991)، 54.

[38] محمد الأحمد، "دوال الهوية والثقافية وتحولاتها في رواية السيرة الحلبية"، *مجلة كلية الإلهيات في جامعة بايبورت* 11 (حزيران، 2020)، 103.

المستطيلة، ربما طولها ستة أمتار وعرضها أربعة، تحت مربعي تمامًا مصطبة بارتفاع متر، تدور فيها سهرات الصيف، تظلّلها عريشة الكرمة، وتظلل البركة شجرة توت كبيرة".[39]

إن هذا البيت الكبير الواسع يدل على وجود أسرة كبيرة تتألف من جد وجدة وأبناء متزوجين وأحفاد، وهذا البيت نموذج لبيوت الأسر الحلبية حتى أواخر القرن العشرين، بخلاف البيوت الحلبية المعاصرة التي تكتفي بالزوجين والأولاد فحسب. ووجود عريشة العنب والبركة والأشجار في البيت الحلبي القديم يدل على أنّ مجتمع حلب يحب الجمال ويستعيض عن الطبيعة الخارجية بطبيعة منزلية.

ووصف الروائي محبّك البيت الحلبي القديم أيضًا في رواية "الكوبرا تصنع العسل" على لسان بطل الرواية (رياض) بقوله: "كنا نعيش في دارٍ عربية ذات فناء واسع، حافل بأصص الورد والقرنفل وعرائش الياسمين"[40]، وبقوله أيضًا: "كنا نسكن بجوار الجامع الأموي، في دار واسعة، لها فناء فسيح، مثل دار جدك التي حدثتني عنها، جدتي ملأت الفناء بأصص الفلّ والورد والقرنفل وعرائش الياسمين، مئذنة الجامع كانت تُمِدُّنا بظلالها الآمنة، ومن حولنا كلُّ الأسواق القديمة، ودكان والدي قريبة".[41]

إنّ وصف هذا البيت يؤكّد حب المجتمع الحلبي للطبيعة وخضرتها وورودها ورياحينها؛ لهذا نجد هذا المجتمع يهتم بزراعة الزهور وعرائش الياسمين في أماكن إقامته.

وتضمّن عالم محبّك الحلبي الروائي وصفًا لنمطين من البيت الحلبي الحديث؛ أحدهما بيت عائلة فقيرة، والآخر بيت عائلة غنية، وقد وصف الروائي النمط الأوّل في رواية "الكوبرا تصنع العسل" على لسان بطل الرواية بقوله: "الدار التي يعيش فيها ليس فيها سوى غرفتين، وهي شقة تحت الأرض، تنْزل إليها بثلاثين درجة، لا ترى النور ولا تعرف الهواء".[42]

إن ثمّة فقرًا شديدًا يعانيه بعض أفراد المجتمع الحلبي، وهذا ما يشير إليه الوصف السابق للبيت الحلبي الذي لن ترضى العيش فيه سوى أسرة فقيرة معدمة، ويوحي الوصف أيضًا إلى وجود كثافة سكانية مرتفعة في بعض أحياء مدينة حلب دفعت الناس هناك إلى إنشاء طوابق سكنية بعضها تحت الأرض.

وأورد الروائي محبّك كلا النمطين في رواية "شقة على شارع النيل" التي وصفت النمط الأول بقول بطلة الرواية (أم جميل): "بقينا في دار الجابرية خمس سنين، عانينا فيها أشد المعاناة من الجيران، في العمارة أكثر من ثلاثين شقة ... كثافة سكانية غير متوقعة، والعفونة أكلت صدرنا".[43] أمّا وصف النمط الثاني فجاء في قولها:

> "شقة ذهب، هي الذهب حقيقة، خمس غرف ... الجدران كلها مغطاة بورق جدران من نوع فاخر، مخمليّ، فيه رسوم زهور نافرة، وكل غرفة بلون، غرفة بلون الكيوي، وثانية بلون زهري فاتح، وثالثة بلون برتقالي فاتح، وغرفة على الجهة الشمالية، هذه باردة في الصيف، ورق الجدران فيها بلون سماوي فاتح، تصلح للنوم، وغرفة شرقية صغيرة نسبيًا، أربعة أمتار بأربعة أمتار، باقي الغرف كلها ستة أمتار بستة، وهذه الغرفة لها شرفة صغيرة مشتركة مع المطبخ، تصلح للطعام، لأن المطبخ بجوارها، والمطبخ خمسة أمتار بأربعة، فيه خزائن خشبية فاخرة، الأسقف كلها مستعارة، ومزودة بمصابيح وأضواء حديثة، شقة جنة. .. لا أعرف كم عمرها، ولكن المدخل مجدد، له باب من ألمنيوم، وفيه إنترفون، الأدراج كلها من رخام، والسيراميك في الحمام جديد، وفي الحمام حوض بانيو، وبيكادوش، والحمام واسعة".[44]

وذكر الروائي بعض محتويات هذه الشقة الفارهة في موضع آخر في الرواية ذاتها بقوله: "للفراش نعومة زغب فرخ عمره أيام، وللغطاء دفء حمامة، تحنو عليه بجناحها وصدرها، تزقه كي يعيش، كي يدفأ، كي يطمئن، كي ينام.جدران الغرفة وردة متفتحة، والستائر

---

[39] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 73.
[40] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 42.
[41] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 73-74.
[42] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 38.
[43] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 75.
[44] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 29.

موسيقا هادئة، والزجاج صامت كتوم، لا يذيع الأسرار، ومن ورائه الأباجورات المعدنية تعزلهما عن الخارج".[45] وفي قوله أيضًا: "اشترى غرفة نوم وغرفة جلوس وغرفة ضيوف وغرفة طعام، اشترى أدوات مطبخ كلها جديدة، اشترى غسالة وثلاجة ومجمدة وجلاية صحون وموقد غاز وفرنًا كهربائيًا، اشترى ثلاثة مكيفات، لغرفة الجلوس ولغرفة النوم ولغرفة الضيوف، ومدفأتين كهربائيتين".[46] بالإضافة إلى حوض أسماك ملونة، وفرش جديدة، وأصص فخارية فيها شجيرات ورد كبيرة.[47]

وصف هذا البيت يوحي بوجود طبقات متفاوتة جدًّا في المجتمع الحلبي، فبينما هناك بعض الأسر تضطر للعيش في شقق صغيرة جدًّا لا تصلها الشمس، نجد أسرًا أخرى تنعم بالحياة في شقق واسعة مجهزّة بأفضل التجهزيات المعاصرة.

ووصف الروائي أشكالًا أخرى من البيوت الحلبية الحديثة، ولا سيما ما جاء في رواية "حمامات بيض ونارجيلة" التي تضمّنت نمطين لهذا البيت، نثر الروائي وصف النمط الأوّل في صفحات متفرقة في الرواية، ويتلخص في أن هذا البيت هو شقّة في بناء مكون من ثلاثة أدوار بالإضافة إلى الدور الأرض، في كل دور شقّة واحدة فيها خمس غرف، ومطبخ، الدور الأرضي فيه حديقة زرعت فيها الورود والرياحين.[48] ووصف الروائي النمط الثاني بقوله:

> "احتوتنا شقة صديقتها، شقة صغيرة، في حي بغرب المدينة، تتألف من ثلاث غرف، ومطبخ ... نحن في شقة مفروشة، وثمة أبواب خشبية ونوافذ وزجاج، ثمة مطبخ، تسطع منه رائحة القهوة، ثمة سرير دافئ، وخزانة ذات مرآة، وصور على الجدار لممثلين وممثلات، ثمة تلفزيون إلى جواري، وتحته جهاز فيديو، وأشرطة عرض كثيرة ... شقة صغيرة مكتملة، كأنها حلم جميل، حوض أسماك صغير، إلى جوار التلفاز، قفص صغير يحتضن كناريًا أصفر كالعسل، قطة سيامية صغيرة، سلحفاة في الشرفة، عمرها خمسة أعوام. زجاج النافذة أمامي يكشف عن برج حديدي يحمل هوائيًا لاستقبال قنوات فضائية، البرج ينتصب عاليًا، يشق عنان السماء، يملأ النافذة، كأنه انتصب أمامها عن عمد، أو كأنها بنيت في مواجهته، لتكون إطارًا له، تنفتح عنه، وهو يخترقها في انتصاب شامخ. أنهض لإسدال الستارة على النافذة، ... نحن في الدور الخامس".[49]

يبدو للباحث المطلّع على أنماط البيوت في مدينة حلب أنّ الروائي أحمد زياد محبّك كان وفيًّا في نقل هذه الأنماط إلى عالمه الحلبي الروائي على نحو يكاد يماثلها في الواقع؛ فمدينة حلب ما تزال تحتفظ في بعض أحيائها القديمة بنمط البيت الحلبي القديم الذي أورده الروائي في رواياته، وفي الوقت نفسه تحتوي أنماطًا مختلفة من البيوت الحديثة كالتي ذكرها الروائي في عالمه الحلبي الروائي.

4.3. أماكن أخرى

أشارت الروايات إلى شتى أنواع الأماكن في مدينة حلب، ولا سيما الجوامع التي تضمنت رواية "شقّة على شارع النيل" على بعضها، ومنها: جامع العثمانية، جامع الرحمن، جامع جمال عبد الناصر، جامع أحمد بن حنبل. ويقول الروائي في وصف جامع الرحمن: "ولا تنس، هنا بجوارك جامع الرحمن، صلاة الجمعة فيه كأنك تصلي في مكة المكرمة، هذا الجامع كلفتُه بقدْرِ كلفة عشرة جوامع، المرمر إيطالي".[50] وذكرت رواية "حمامات بيض ونارجيلة" الجامع الأموي. وتضمنت رواية الكوبرا تصنع العسل" الجامع الأموي وجامع الأطروش.

ومن الأماكن الأخرى التي ذكرتها رواية "شقّة على شارع النيل": ساحة سعد الله الجابري، دوار الدلّة، حديقة السبيل، شارع فيصل، الحديقة العامة، الفندق السياحي، دار الإفتاء، الجامعة، مطعم سُلاف، مكتب التقوى، ساحة الأحرار، سوق الهال، محل سلورة، مشفى الرازي، باب الفرج، شارع فيصل، شارع تشرين، دوار شيحان، دوار الليرمون، المدرسة، دار الكتب الوطنية، إعدادية

---

[45] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 63.

[46] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 68.

[47] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 172.

[48] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 14، 16، 27، 46.

[49] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 89.

[50] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 12.

إسكندرون، مطعم القمة. وقد وصف الروائي ساحة الأحرار هذه الرواية بأنّها تقع وسط حي الكلاسة، "وتضج بالصخب والأصوات والحياة، عشرات العربات والبسطات لبيع الخضروات والفواكه، نداءات الباعة تتناغم مع أبواق السيارات وضجيج محركاتها تشكل في تناغم موسيقى الحياة، والموز الأصفر مع التفاح الأحمر، يشكلان مع السبانخ الأخضر والقرنبيط بزهره الأبيض ألوان العيش والبهجة".[51]

ويلاحظ الدارس أن الروائي يكتفي بالإشارة إلى المكان في بعض المواضع؛ لأنه مجرد مكان لاستيعاب الحدث فحسب، في حين يصف بعض المواضع الأخرى حين تكون هذه المواضع ذات دلالة نفسية أو جمالية على شخصية البطل.

وذكر الروائي في هذه رواية "شقة على شارع النيل" بعض الأماكن التابعة لمدينة حلب، ولا سيما عفرين وشرَّان ونبل والزهراء ودير جمال وإعزاز وكفر جنة التي تمتاز بطبيعتها الجميلة.[52]

وتضمّنت رواية "حمامات بيض ونارجيلة" ساحة المشارقة، مؤسسة البريد، الجامعة، مقصف الاستراحة، مقصف النخيل، مكتبة الأندلس، كلية الحقوق. وتضمّنت رواية "الكوبرا تصنع العسل" فندق شهباء الشام، ساحة الملح، شارع القوتلي، ساحة سعد الله الجابري، البريد، شارع الإذاعة، سينما حلب، سينما فؤاد، سينما الكندي، مقهى النجمة، مطعم أبو نواس، مستشفى الجامعة، المصرف، محطة القطار، مستشفى الكلمة، مديرية التصدير.

يبدو للباحث في المكان الحلبي الروائي في روايات محبّك وفاء الروائي في نقل المكان الواقعي إلى رواياته، وكأنّ الروائي محبّك برسمه مدينة حلب على هذا النحو يريد أن يؤكّد للمتلقي رغبته في تقديم المكان الحلبي في رواياته على نحو يقارب الواقع خلال الفترة الممتدة منذ منتصف القرن العشرين حتى بداية القرن الحادي والعشرين، ولعله في هذا يريد أن يحتفظ بصورة حلب في رواياته خلال هذه الفترة للأجيال القادمة.

4. الأسماء

تساعد الأسماء السائدة في مجتمع ما في تعيين نمط التفكير والسلوك لهذا المجتمع. والأسماء في المجتمعات العربية عامّة تشير إلى منظومة دينية أو اجتماعية أو سياسية أو تاريخية. وثمّة منظومة يمكننا تسميتها بمنظومة الأسماء المستحدثة، هي تلك التي كثر استخدامها في بعض المجتمعات العربية المعاصرة ولم تكن شائعة في الماضي، وذلك لجمال معناها وحلاوة جرسها الموسيقي، وسهولة نطقها على اللسان.

ويمكن القول إن معظم أسماء الشخصيّات الحلبية في عالم محبّك الحلبي الروائي تنتمي إلى النوع الأخير، فقد أوردت رواية "شقة على شارع النيل" من أسماء هذه المنظومة: سامر، نوال، أكرم، سعاد، سناء، هناء، شفيق، عُلا. وذكرت رواية "حمامات بيض ونارجيلة": هناء، سناء، ليلى، نجوة، روضة، نوال، دلال، أكرم، جمال. وجاء منها في رواية "الكوبرا تصنع العسل": وداد، سناء، ودلال، وهيام، ومنى، وسميرة، وهدى، عهد.

يلي هذا النوع من الأسماء تلك التي تنتمي إلى المنظومة الاجتماعية، وهذه جاءت على أنواع، يأتي في مقدّمتها الكُنى التي تستعمل للدلالة على احترام الشخص. وعادةُ أهل حلب أن ينادوا الآباء والأمهات بذكر اسم الابن الأكبر مُصدّرًا بلفظ أب أو أم[53]؛ ولهذا نجد أنّ عبد المجيد في رواية "شقة على شارع النيل" يكنّى بـ"أبو جميل" وزوجته شرين تكنّى بـ"أم جميل". وتضمّنت هذه الرواية كثيرًا من الشخصيّات التي كانت تكنّى باسم الابن الأكبر، ولا سيما أبو سامر وأبو أحمد وأبو عمر وأبو منير وأبو وائل، وأم وائل وأبو صلاح وأم صلاح وأبو حسين. وهذا يضفي على الشخص احترام الآخرين له حين ينادونه بمثل هذه الكُنى كما هو مشهور لدى أهل حلب.

[51] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 44.

[52] محبّك، *شقّة على شارع النيل*، 120.

[53] الأحمد، "دوال الهوية والثقافية وتحولاتها في رواية السيرة الحلبية"، 103.

ومن الأسماء التي تنتمي إلى المنظومة الاجتماعية تلك التي تسبق الاسم باسم يدل على المكانة الاجتماعية للشخصية، ومما جاء منها في رواية "شقة على شارع النيل": الدكتور سمير أستاذ علم اجتماع في جامعة حلب، والقاضي والمستشار الأول عماد، والطبيب الجراح ميشيل، والقاص والروائي سامي، وسيادة العقيد المتقاعد تامر، والأستاذ خالد، والأستاذ محمد قجة، والدكتور جمال طحان. ومما ينتمي إلى المنظومة الاجتماعية تلك التي يلحق الاسم بكلمة تدل على المكانة الاجتماعية، ومما جاء منها في رواية "شقة على شارع النيل": حكمت بك، رؤوف أفندي، وهناء خانم. ويلحظ هنا أثر الثقافة التركية في هذه الأسماء؛ فالمجتمع التركي يشتهر باستخدام هذه الألقاب حين التخاطب بين أفراده. وقد يسبق الاسم بكلمة حاج إذا أدّى فريضة الحج من المسلمين، وجاء من هذا النوع الحاج إسماعيل في رواية "شقة على شارع النيل".

وثمّة أسماء تنتمي إلى المنظومة الدينية، ومنها ما تضمنته رواية "شقة على شارع النيل"، ولا سيما عبد المجيد وإسماعيل وصالح وعمر ومحمد. وتضمّنت رواية "حمامات بيض ونارجيلة" عبد القادر. وجاء في رواية "الكوبرا تصنع العسل" إسماعيل وخالد.

وثمّة أسماء تدل على التميّز والكمال ولا سيما اسم كامل الذي ورد في "شقة على شارع النيل"، وفريدة في رواية "حمامات بيض ونارجيلة". وثمة اسم شعبي في مدينة حلب جاء في رواية "حمامات بيض ونارجيلة"، وهو بكري.

ومما ينتمي إلى المنظومة التاريخية اسم هشام في رواية "حمامات بيض ونارجيلة". وفي هذه الرواية بالتحديد يكرّر الروائي اسم هشام؛ إذ يُظهر فيها شخصيتين اسم كلّ منهما هشام، أحدهما ظالم، والآخر مظلوم، الأول هو مدير معمل النسيج الذي استولى عليه غصبًا، والثاني هو العامل في معمل النسيج واسمه هشام أيضا، ويستبد به هشام المدير، وتشير الرواية في هذا السياق إلى هشام بن عبد الملك (ت 743م) عاشر خلفاء بني أميّة، وهشام عبد مناف (ت 524م) الجد الثاني للنبي محمد صلى الله عليه وسلّم.

وثمّة أسماء ذات أصل كردي، ولا سيما شيرين زوجة عبد المجيد وابنته هيفين في رواية "شقة على شارع النيل"، وفي هذا ما يدلّ على وحدة النسيج المجتمعي في مدينة حلب بما فيه من مكوّنات عرقية متعددة.

والمدقق في هذه الأسماء كلّها يجد أنّ الروائي كان حريصًا على تسمية أسماء شخصيات مدينة حلب في رواياته بالأسماء الشائعة في مدينة حلب في الواقع. ويبدو للباحث أن الروائي أراد أن تكون رواياته عن حلب تصويرًا لواقع هذه المدينة الذي يمكن أن يكون وثيقة تاريخية تمثّل المجتمع الحلبي في عصرنا تمثيلًا حقيقيًّا.

5. الأزياء والألبسة

لكل مدينة ألبسة يتميّز بها مجتمعها عن غيره من المجتمعات الأخرى، ويستطيع اللباس أن يحدّد عالم الشخصية الذي ترتديه من خلال شكله ولونه، ويستطيع أيضًا أن يشير إلى الفترة الزمنيّة لاستخدامه في المكان. واللباس لا يتوقف على كونه ضرورة حياة يرتديه الإنسان بغية ستر جسده أو اتقاء البرد أو الحرّ، بل هو بالإضافة إلى ذلك صورة ثقافية للمكان الذي تنتمي إليه لها معانيها ودلالاتها. ومن هنا نستطيع القول: إن اللباس يسهم في تحديد هوية الإنسان الذي يرتديه.

ويتكون زي المرأة المسلمة عامّة من رداء طويل فضفاض، وغطاء للرأس، وفي بعض الأحيان غطاء للوجه كذلك، وهو يختلف عن الزي الذي اتخذته المرأة الغربية الحديثة، والذي يتناسب مع قيم الحداثة العلمانية التي سعت إلى التأكيد على المساواة بين النساء والرجال في العمل والتعليم في المجال العام من جهة، ومن جهة أخرى سعت إلى التحرر من القيم الدينية.

والباحث في الروايات العربية يجد أن صورة المرأة العربية برزت بكلا الزيين: زي المرأة العربية التقليدي الذي يتّسق مع الفكر الإسلامي، والزي الغربي الحديث الذي انتشر في المجتمعات العربية نتيجة العلاقة مع الغرب، والذي يبرز جمال وجه المرأة ومفاتن جسدها، ويشير إلى حداثتها وتحررها، وهي صورة جسدتها أعمال روائية عربية كثيرة.

أمّا الرجل في المجتمعات الإسلامية فعامّة ما يلبس لباسًا فضفاضًا يستر به كامل جسده، وغالبًا ما يضع غطاء على رأسه. ويختلف هذا اللباس الفضفاض من مجتمع لآخر، فبينما يتكون من شروال وقميص في معظم البلاد الإسلامية نجده يتكوّن من

ثوب طويل لدى مجتمعات الجزيرة العربية. لكنّ هذه الصورة المتوارثة للباس في المجتمعات الإسلامية تغيّرت كثيرًا لدى معظم المجتمعات نتيجة العلاقة مع الغرب، ولا سيما في بلاد الشام والعراق ومصر والمغرب العربي، حيث شاع لباس البنطال والقميص لدى معظم أفراد المجتمع.

وعلى الرغم من عدم تركيز الروائي محبّك كثيرًا على الأزياء الحلبية في رواياته فإن المتلقي يلمح التغيّر الذي طرأ على أزياء المجتمع الحلبي من خلال هذه الروايات؛ ففي حين أنّ المجتمع الحلبي معروف بالتزامه باللباس الذي يتّسق مع الدين الإسلامي عامّة فإنّ روايات محبّك أبرزت الرجل والمرأة عامّة في حلب على غير ذلك؛ فبدت معظم النساء في رواياته حاسرات الرؤوس، يلبسن ما يشأن من ثياب ملونة بأشكال متعددة من دون أن يلقين أي معارضة من المجتمع. وبدا الرجل بالزي الغربي وهو يلبس البدلة ويضع ربطة العنق. ويعود السبب الرئيس في هذا إلى أنّ معظم الشخصيات في رواياته هم من طبقة الموظفين والموظفات الذين يتوجب عليهم الالتزام بنمط محدّد من الألبسة كما هو معروف لدى أهالي مدينة حلب.

ويستطيع المتلقي أن يكوّن صورة لزي المرأة الحلبية في روايات محبّك من خلال وصف لباس وداد في رواية "الكوبرا تصنع العسل" التي جاء وصفها وهي خارج البيت في قول الروائي: "الثوب الأصفر يلتفُّ على قدِّها الرشيق، في بساطة وأناقة، وردة سوداء مطرزة عند الصدر، فوق القلب"[54] ووصفها الروائي في ثياب البيت بقوله: "وتدخل عليَّ في ثوب زاهي الألوان، طويل إلى الأرض، ينسدل على جسمها في لدونة".[55] ووصفها في ثياب البيت في موضع آخر بقوله: "وتدخل في ثوب أسود رقيق، ينْزلق على قوامها اللدن، وينساب ليبلغ الأرض، سوار الكوبرا يلتفُّ حول معصمها".[56] ووصفها بعد موت زميلها صالح في ثياب الحزن بقوله: "جاءت في ثوب أسود، ولفت عنقها بعصابة سوداء، حين دخلت المكتب شعرت كأنني أراها أول مرة، السواد والحزن جلّلاها عظمة".[57]

وجاء وصف المرأة الحلبية في رواية "حمامات بيض ونارجيلة" بقول الروائي: "منديل أصفر رقيق تلف به عنقها الأبيض الشفاف، كأنه البلور، تعقد المنديل بربطة كالوردة عند الجانب الأيمن"[58] وجاء وصفها أيضًا في موضع آخر بقوله: "تكررت الزيارات، أناقتها هي هي، ثقتها بنفسها هي هي، تسريحة شعرها هي هي، ولكن في كل مرة تأتي بفستان جديد، فساتينها زاهية الألوان، فاتحة، لا ترتدي بنطلونًا أو قميصًا ... تتصرف بعفوية، جاءتني مرة في الشتاء بمعطف أبيض، أنيق جدًا، فور دخولها خلعته بعفوية، وكأنها في بيتها، تقعد أمامي في احترام".[59] ووصف الروائي لباس العروس في رواية "حمامات بيض ونارجيلة" بقوله: "هناك، ما أزال أحتفظ بثوب زفافها الأبيض، في الخزانة، لم يره أحد، ثوب الزفاف الأبيض الذي لم تلبسه، أوصيت به أحد أصدقائي في باريس، وصلني بالطائرة، أبيض أبيض، كالحمامة البيضاء".[60] ووصف الروائي المرأة الحلبية في رواية "شقة على شارع النيل" بالزي الغربي بقوله: "شابة صبية، على المقعد أمامه، في الخامسة والعشرين، قميص أصفر، شال أزرق تلفه على عنقها، بنطال جينز ضيق، شعر أشقر".[61]

أمّا الرجال فظهر بعضهم بالبدلة وربطة العنق؛ وجاء هذا في وصف مدير البنك في رواية "حمامات بيض ونارجيلة" بقول الروائي: "خلع جاكيته، لم يخلع ربطة العنق".[62] ووصف لباس أحد الرجال في رواية "شقة على شارع النيل" بقوله على لسان بطل الرواية (أبو جميل): "ولعله في الخامسة والستين، يعني أكبر مني بثلاث سنين، ولكن هو: شعر أسود مصبوغ، ملمع، وحذاء جديد، وبدلة لامعة، وسيكارة

[54] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 33.
[55] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 57.
[56] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 83.
[57] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 50.
[58] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 101.
[59] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 102.
[60] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 69.
[61] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 153.
[62] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 94.

وقداحة ذهبية"[63] وبدا الرجال يرتدون المعاطف الشتوية في رواية "الكوبرا تصنع العسل"، وذلك في حوار داخلي أجراه الروائي في دخيلة بطل الرواية (رياض) بقوله: "هل أنتقي أفضل معطف عندي؟ أم هل أترك ذقني غير حليقة؟ وأرتدي معطفي الذي غالبًا ما ارتديته، زوجتي نفسها لاحظت ترددي، طلبتُ منها أن تناولني معطفي الكحلي، الذي أحتفظ به عادةً للمناسبات، ثم لَمَ ألبث أن تركته، وارتديت معطفي المألوف، وخرجت"[64]

أمّا لباس الأجداد في عالم محبّك الحلبي الروائي فبدا مختلفًا عمّا يرتديه الجيل المعاصر؛ فقد وصف الروائي ذلك اللباس في رواية "شقة على شارع النيل" بقوله: "جدهم الله يرحمه، كان يلبس الزي العربي، ويلف على خصره الزنار العجمي، ويمشي في الحارة ومعه الباكورة المحلب، وعلى رأسه الحطة".[65]

إنّ الباحث في روايات محبّك يجد أنّ ألبسة سكّان حلب غربية في الغالب، فالرجل يلبس البنطال والقميص، وقد يلبس البدلة مع ربطة العنق، أما المرأة فتلبس الثوب الطويل أو القصير أو البنطال، وقد تضع غطاء رأس، وربما كشفت عن رأسها.

6. الدين والمعتقدات

الدين جزء أساسيّ من تكوّن المجتمعات، فلا نكاد نعثر على مجتمع من دون دين يؤمن به أفراده ومعتقدات تستند إلى هذا الدين سواء كان سماويًّا أو وضعيًّا. وثمّة علاقة تأثّر وتأثير بين الدين والمعتقدات لدى مجتمع ما وبين طريقة تفكير أفراد هذا المجتمع وسلوكياتهم وتعاملاتهم وثقافتهم ونظرتهم إلى الكون والحياة. ومن هنا يمكننا القول إن الدين والمعتقدات من أهم سمات الهوية التي التي يمتاز بها مجتمع ما عن غيره من المجتمعات الأخرى.

ويمثل الدين في عالم محبّك الحلبي الروائي معيارًا بارزًا للهوية الحلبية، وبدا المجتمع الحلبي الروائي يمارس الممارسات الدينية المعروفة لدى المسلمين، ولا سيما الوضوء وإقامة فروض الصلوات والحج وتبييت الاستخارة والدعاء والإيمان باليوم الآخر.

وتضمّن السرد الروائي في رواية "شقة على شارع النيل" كثيرًا من ممارسات الدين الإسلامي، ومنها صلاة العشاء وصلاة الاستخارة في قول الروائي على لسان بطلة الرواية (أم جميل): "وأنا صليت العشاء، وبيَّتُّ استخارة، ثم نمت، ورأيت في الحلم ما هو مريح"[66]، ومنها أيضًا الاستماع إلى الأذان والوضوء والصلاة في المسجد وما يرافق هذه العبادات من شعور براحة وسكون، وهذا ما ذكره الروائي في قول بطل الرواية (أبو جميل):

> "وأنا أدخل إلى المسجد أحسست أنني أترك وراء ظهري الدنيا لأدخل في عالم آخر، خلعت حذائي، أحسست أني أخلع ماضي كله والقهر والمعاناة، واحتواني فضاء الجامع الهادئ الساكن، طوال الطريق من حديقة السبيل إلى الجامع كنت أصغي إلى الأذان، استمعت إليه من قبل آلاف المرات، ولكنني كنت أصغي إليه هذه المرة بشكل مختلف، أسير على إيقاعه، أقصد إليه، ألبيه، حين لامس الماء وجهي وأنا أتوضأ، أحسست بمياه العالم كله ببحاره وغيومه وأمطاره وأنهاره، ارتعش جسدي وخفق قلبي، وحين غسلت قدمي أحسست بشيء يتغلغل عبر كياني كله، وبين المصلين أحسست بهدوء لا مثيل له، أكاد أسمع همس النجوم وألمس حركة النور في العالم".[67]

في رواية "شقة على شارع النيل" يعترف أبو جميل بأنه كان مقصرًا في صلاته ولكن في أواخر الرواية يسمع صوت الأذان وهو حديقة السبيل فيسرع إلى جامع الرحمن ويؤدي فريضة الصلاة، ويشعر براحة نفسية عجيبة أثناء وضوئه وصلاته، عبّر عنها في المقبوس السابق.

---

[63] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 25.

[64] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 66.

[65] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 11.

[66] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 30.

[67] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 158.

ومن ممارسات الدين الإسلامي التي تضمنتها هذه الرواية أداء فريضة الحج التي ذكرها الروائي في قول (أبو جميل): "سأخبرك، أرسلت إلى ولدي جميل صورة عن جواز سفري وجواز سفرك، كي يحصل لنا على فيزا لأداء فريضة الحج".[68] وتضمنت هذه الرواية بعض آيات القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية.

وتضمّنت رواية "حمامات بيض ونارجيلة" بعض ممارسات المسلمين، ولا سيما الصلاة والدعاء والإيمان باليوم الآخر والحساب.[69]

إنّ الباحث في عالم محبّك الحلبي الروائي يجد أن انتماء الشخصيّات الحلبية إلى دين الإسلام أسهم في تشابه معتقدات أفراد هذا المجتمع، وقادهم إلى التعاون في شؤون حياتهم في السّراء والضّراء، وبدت شخصية الإنسان الحلبي عامّة بهذا الاعتقاد متوازنة إلى حدّ كبير نتيجة تمسّكه بقيم الدين الإسلامي، واحترامه حدود الله، وهذا منح أفراد هذا المجتمع العزّة والكرامة، وأسهم في تجذّر إنسانية كلّ منهم وهويته بوصفه إنسانًا.

7. الأطعمة والأشربة

إن استحضار الطعام والشراب داخل الرواية ليس ترفًا سرديًّا، بل هو مكمِّل لبنية الرواية يكشف عن أبعاد معينة داخل السّياق الروائي، بالإضافة إلى إسهامه في تحديد هويّة المجتمع الروائي من خلال معرفة أهم الأطعمة والأشربة السائدة فيه، ومعرفة طريقته في إعدادها وطريقة تناولها.

والباحث يجد أنّ عالم محبّك الحلبي الروائي حفل بعرض كثير من أصناف الأطعمة والأشربة التي تفنن الروائي بتقديمها، ويلحظ أن الروائي لم يقدّم هذه الأطعمة والأشربة رغبة منه في إيهام المتلقي بالواقع المقدّم سرديًّا فحسب، بل لأن هذه الأطعمة مستقاة من الواقع الحقيقي للمجتمع الحلبي الذي أراد الروائي أن يقدّمه على حقيقته، ويعبّر عن الثقافة السائدة لهذا المجتمع التي يشكل الطعام والشراب أحد أسسها في الحياة.

إنّ الطعام لدى المجتمع الحلبي في روايات محبّك يحمل أبعادًا إنسانية مختلفة، هذه الأبعاد هي التي جعلته ينوّع في أطعمة الناس في حلب بحسب طبيعة شخصياتها التي يتعامل معها. ويمكن القول إن روايات محبّك تحمل مطبخًا غنيًّا عن المجتمع الحلبي، قدّم فيه وصفات كاملة عن بعض الأطعمة المشهورة في هذه المدينة، ووصف أدوات الطعام المستخدمة فيها، وطريقة تقديم هذه الأطعمة وتناولها. وقدّم الروائي أيضًا بعض الأشربة المشهورة لدى المجتمع الحلبي وطريقة إعداد بعضها. والروائي في كل هذا يريد أن يضع المتلقي أمام ثقافة المجتمع الحلبي في الطعام والشراب.

وبدا الروائي محبّك حريصًا على تعريف المتلقي بأهم المأكولات والمشروبات الحلبية، ولا سيما تلك التي تختص بمناسبات معينة. فالمامونية أكلة شعبية مشهورة في حلب، وقد تكرر ذكرها 15 مرّة في رواية "شقّة على شارع النيل"، و14 مرة في رواية "حمامات بيض ونارجيلة"، وذكر الروائي أن المامونية تقدّم إلى جانب الشعيبيّات، ويكثر أكلها في المناسبات، ولا سيما في الزواج، وممّا جاء عنها في رواية "شقة على شارع النيل": "الشعيبيات قبب من ذهب تتألق، وإلى جانبها المأمونية وعلى وجهها يموج السمن، وإلى جوارها وعاء من زجاج كريستال فاخر، فيه عسل مصفى، وإلى جواره وعاء يشبهه، هو توأمه، فيه اللبأ كأنه هرم من فضة... مأمونية بالعسل مع شعيبيات بالفستق، وصحن جبنة شلل مغسولة من الملح".[70]

وأبرز الروائي أكلة السمك وطريقة ترتيب المائدة بقوله:

> "وتحمل السكين وتقطع له قطعة كبيرة من السمك، وتضعها في الصحن. سمك شهي حقيقة. المائدة صغيرة، ... مرتبة بشكل أنيق جدًا، صحن كبير، في وسطه صحن صغير، تحتهما منديل ورقي، إلى يمين الصحن سكين، إلى يساره شوكة وملعقة، في الصحن الصغير عصير

[68] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 158.

[69] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 23-24.

[70] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 40.

الرمان فوقه ذرات من النعناع اليابس وقليل من الثوم المقطع ناعمًا، وتلتمع قطرات من الزيت، كأس زجاجية متألقة إلى جانب كل صحن، فرخ السمك في جاط كأنه الزورق من كريستال رقيق شفاف، فرخ السمك مزين بأوراق النعناع الخضراء، حبة بندورة حمراء في فم السمكة، مزهريتان صغيرتان على المائدة، في كل مزهرية زهرتا قرنفل، واحدة حمراء والثانية بيضاء".[71]

ووصف الروائي بعض وجبات اللحوم وما يقدّم إلى جانبها من مأكولات بقوله: "أبو جميل يطلب صحنًا من اللحوم المشوية بأنواعها المختلفة: الكباب، والقطع، والكاستاليتا، والشيش طاووق، وأقراص اللحم بالنعناع، والشاورما، والشرحات. ... وسرعان ما يأتي النادل بصحون المقبلات، بما فيها السلطات والمخلَّلات والحمص والمتبل واللبن الرائب والفليفلة الخضراء والحمراء وأعواد النعنع".[72] ويقول أيضًا: "حوالي الساعة الثالثة من اليوم نفسه يلتئم شمل الأسر الأربعة، أكثر من عشرين شخصًا يلتفون حول مائدة طويلة تمتد على طول الحديقة في شقة أم صلاح. في المائدة على عادة أهل حلب في مثل هذه المناسبات عش البلبل الجاهز[73]، صناعة محل مهروسة بالخالدية، بلحم الغنم، والسمن العربي، وإلى جانبه اللبن الرائب، بالإضافة إلى السلطات"[74]

وظهرت في الروايات أكلات البيض المقلي، والملوخية، والتبولة الحلبية، والكباب المشوي مع اللحمة والكرز، والشيش طاووق، والكباب والخشخاش بالثوم، والكلاوي المشوية، وعش البلبل، والفتة بالحمص، والفول المدمس والحمّص، ورقائق البطاطا، والجبن، والسلطات.

وظهر من المأكولات الحلوة بالإضافة إلى الماموننية والشعبيَّات المحشوة بالقشطة والمسقيّة بالعسل، و اللبأ، وغزل البنات، الكاتو.

وظهرت الفواكه ولا سيما التفاح، والخضروات ولا سيما الطماطم والفليفة الخضراء والحمراء والنعنع، بالإضافة إلى الجوز والفستق.

وقد أبرز الروائي مشروب القهوة في مدينة حلب على نحو ملحوظ، وكأنّه في كل رواياته يؤكد أهمية هذا المشروب لدى المجتمع الحلبي، حيث تكرر ذكر كلمة (قهوة) 89 مرّة في رواية "الكوبرا تصنع العسل، و68 مرّة في رواية "شقّة على شارع النيل"، و46 مرة في رواية "حمامات بيض ونارجيلة، وممّا جاء عن شرب القهوة في رواية "الكوبرا تصنع العسل": "دعوتها إلى فنجان قهوةٍ ريثما يتم طبع الكتاب، اعتذرتْ، ...، شكرتني، ثم قالت قبل أن تخرج مؤكدة: أعدك بشرب قهوتك في وقت آخر"[75]، و"من عادتنا يا وداد، شرب القهوة في ربع الساعة الأولى من الدوام، قبل بدء العمل"[76]، و"وقبل مغادرتي الحافلة قال لي: سأزورك غدًا في المكتب لشرب القهوة".[77] ووصف الروائي إحدى طرق إعداد القهوة في حلب في رواية "حمامات بيض ونارجيلة بقوله: "حقيقة، جدتي، يرحمها الله، كانت تشربها حلوة، حلوة جدًا، لا تشربها إلا طازجة، تأتيها جارتها أم خالد، تأتي بمحمصة صغيرة، هي أسطوانة حديدية سوداء، على حامل، ولها ذراع، تحت الأسطوانة قليل من الفحم، وتضح حبات البن في المحمصة من خلال فتحة لها مزلاج، وتأخذ في تدوير المحمصة، حتى يفوح شذى البنّ المحمّص. ثم تضع حبات البن في طاحونة يدوية نحاسية صفراء، وتأخذ في تدوير ذراع المطحنة، وإلى جوارها جارتها أم خالد، وهما تتحدثان عن الأصهار والزوجات والكنات والجيران والأقارب، وعن أنواع الأطعمة والأشربة والولائم والمناسبات والأفراح، ثم تأتي بصندوق معدني صغير تفتحه، تخرج منه قطعًا معدنية، تركبها، وتضم أجزاء بعضها إلى بعض، فإذا هي موقد نحاسي صغير، تصب فيه الكحول الأزرق، ويتصاعد اللهب، وتشرع في غَلْيِ القهوة في دلّة صفراء صغيرة، تصرّ على تحريكها وهي فوق النار، مرات ومرات، حتى تصبح أشهى، والعبق يملأ الغرفة، تصب فنجانين لجارتها ولنفسها ... وتصب قليلًا في فنجان أبيض كاللؤلؤ، وهو من الداخل أصفر لامع، كأنه مطلي بالذهب".[78]

---

[71] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 47.

[72] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 82.

[73] يُقدَّم عش البلبل في الأفراح والمآتم والدعوات الخاصة، ويصنع من العجين المشبع بالسمن على شكل أقراص صغيرة تعلوها طبقة من اللحم الناعم الممزوج بالبهار ودبس الرمان، وتعلوه أيضًا حبات الصنوبر، ويخبز في الفرن. يقوم بتصنيعه بصورة خاصة أصحاب محلات الحلويات في حلب.

[74] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 231.

[75] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 9.

[76] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 22.

[77] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 26.

[78] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 57.

والحقيقة أن أهالي حلب يفضلون القهوة على غيرها من المشروبات، وأغلبهم يبدأ يومه بتناولها، وتكاد لا تخلو زيارة أو مناسبة من شربها.

وظهرت في روايات محبّك لدى المجتمع الحلبي بالإضافة إلى القهوة مشروبات الشاي واللبن الرائب والقهوة العربية ومغلي اليانسون والكولا.

8. الأمثال والحكايات الشعبية

الأمثال حاضرة على ألسنة الناس في مختلف المجتمعات البشرية، وهذه الأمثال صاحبت قصصًا أو مواقف مرّ بها السابقون فصارت حكمة أو مضرب مثل، وتحوّلت إلى نبراس يضيء الدرب أمام أفراد المجتمع. وكذا هو حال الحكايات الشعبية فهي خلاصة تجارب الأجيال مصوغة بقالب قصصي مشوّق زاخر بالعبر والقيم النبيلة. والأمثال والحكايات الشعبية مرآة عاكسة للمجتمع وإحدى الوسائل التي تحافظ على الإرث الثقافي وتسهم في ترسيخ الهوية الثقافية للمجتمعات. والأمثال والحكايات الشعبية تشمل جوانب عديدة من الحياة الاجتماعية، ولا سيما إدارة المال والتربية والترفيه عن النفس وغيرها.

والرواية بوصفها إحدى أيقونات الحياة التي يمكن أن تختصر التاريخ والجغرافيا لمجتمع ما، وتشير إلى أهم العناصر الفاعلة التي كوّنت البنية الثقافية الاجتماعية، تسهم في ضمان استمرار حياة هذه البنية في الثقافة الإنسانية من خلال تخليدها لهذه الثقافة. ومن هنا نستطيع القول: "إن كل وجه يقدّمه النص الروائي، يكشف نمطًا من أنماط تفكير البنية الثقافية الاجتماعية التي يَصدُر عنها، ويُصدّر ثقافتها".[79]

وثمّة ميل نحو النصوص الروائية المشبعة بخصائص ثقافية للبنية التي تقدّمها؛ لأنها ترضي في المتلقي نزعة التوق إلى المعرفة واكتشاف الآخر. وحينما تقدّم الرواية ثقافة مجتمع ما، فإنها تعرّف المتلقي بثقافة هذا المجتمع، وتذكّره بوجوده، وهذا يكون سببًا في حفظ ثقافة هذا المجتمع وحمايتها من النسيان والاندثار.[80]

والمتتبع لمجتمع حلب في عالم محبّك الروائي يعثر على بعض الأمثال التي دارت على ألسنة أفراد هذا المجتمع. ومن الأمثال التي احتوتها رواية "شقة على شارع النيل": "الولد سر أبيه" و"الحاجة أم الاختراع".[81] وتضمّنت رواية "حمامات بيض ونارجيلة": "الأكل على قَدْرِ المحبة"[82] و"بيننا خبز وملح".[83] و"مكره أخاك لا بطل".[84] وتضمّنت رواية "الكوبرا تصنع العسل" "العمل هو العمل" و"الطعام عورة".[85]

وثمّة حكاية شعبية مشهورة بين أفراد المجتمع الحلبي، وأورد الروائي محبّك حكايتين منها في عالمه الحلبي الروائي، الأولى في رواية "حمامات بيض ونارجيلة" ذكرها الروائي بقوله: "اسمع، سأحكي لك حكاية حتى تتسلى: كان في إحدى القرى جدٌّ عجوز يعيش مع زوجته العجوز مثلي، وليس لهما أحد سوى الله، وليس عندهما غير ثلاث عنزات، أو أربع، وأربع دجاجات أو خمس، وذات يوم في ليلة من ليالي الشتاء سطا عليهم ذئب، فنهش عنزة، وفي اليوم التالي نهش عنزة، في الليلة الثالثة استخرج الجد من صندوق قديم بارودة عتيقة، مسحها، نظفها، حشاها، ولما حلَّ الظلام قعد وراء الباب ينتظر قدوم الذئب، وتوضأت العجوز وصلت لله تعالى ركعتين، وقعدت على سجادة الصلاة تدعو الله أن يقصف عمر الذئب، وهكذا طوال الليل، الجدّ يهيئ البندقية، والعجوز تصلي وتدعو، حتى ملأ

[79] شهلا العجيلي، "النص الروائي ودوال الهوية الثقافية"، *مجلة علامات* 53/14 (سبتمر 2004)، 441-442.

[80] الأحمد، "دوال الهوية والثقافية وتحولاتها في رواية السيرة الحلبية"، 99.

[81] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 17، 124.

[82] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 55.

[83] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 56.

[84] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 108.

[85] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 19-80.

الضوء الدنيا، وأشرقت الشمس، وفتح العجوز الباب، فوجد الذئب وقد سقط وراء الباب وهو ميت".[86] والثانية أوردها الروائي في رواية "الكوبرا تصنع العسل" بحوار دار على ألسنة شخصياته بقوله: "هل تعرفين قصة بيت الملح؟ – لا. – هل تودين سماعها؟ – بكلِّ سرور....لن أنساها، هذه هي: كان لأحد الرجال ولد وحيد، تعهَّده بِحُسْن التربية، وشجَّعه على اتِّخاذ الأصدقاء، ليملأ بهم وحدته، ويعوِّض بِهم عن الإخوة. وذات يوم سأله عن أصدقائه، فأكَّد له أنَّهم جميعًا أوفياء، فأخبره أنَّه يودُّ اختبار وفائهم، فدعاهم إلى وليمة، وجعل عند مدخل الدار غرفةً مملوءةً بالملح، وأخذ الأب عند خروج أصدقاء ولده من الوليمة، يسألهم واحدًا واحدًا أن يتناولوا من الملح بمقدار إخلاصهم لولده، وكان هذا يؤكِّد أنَّه سيأكل قنطارًا، وآخر يَعِدُ بتناول قناطير، وثالث يقسم على التهام البيت كلِّه، ولكنهم كانوا جميعًا لا يقدرون على تناول ما يملأ ملعقةً أو ملعقتين، ويخرجون خائبين. وأخيرًا، تقدَّم واحدٌ منهم، فسأله الوالد السؤال نفسه، فغمس إصبعه في الملح، ولعقها، وقال: من لا يستطيع الإخلاص لذرَّة من ملح، لا يستطيع الإخلاص لقنطار".[87] ولا بدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذه الحكاية الشعبية هي واحدة من مئة وخمسين حكاية شعبية جمعها الروائي في كتاب خاص.[88]

إن هذه الأمثال والحكايات الشعبية التي أوردها الروائي في رواياته تضع متلقيه أمام ثقافة المجتمع الحلبي وطريقة تفكير أفراده وتعاملهم مع الآخرين.

9. العادات والتقاليد

تندرج العادات والتقاليد السائدة في المجتمع الحلبي ضمن دلالات الهوية الثقافية لهذا المجتمع، وعالم محبك الروائي أبرز كثيرًا من العادات والتقاليد التي يمتاز بها المجتمع الحلبي، ولا سيما عادة نداء الشخصيات بأب أو أم مضافًا إليها اسم الابن الأكبر: مثل: أبو جميل، أم جميل، أبو سامر، وغيرها. وهذه الطريقة في النداء تهدف إلى احترام وتوقير الشخص المنادى.

وثمّة عادات ذات منشأ ديني برزت في المجتمع الحلبي الروائي في روايات محبّك، ولا سيما في رواية "شقّة على شارع النيل" التي ظهرت فيها صلاة الاستخارة حين الإقدام على فعل شيء ما[89]، وعادة المساومة عند الشراء والبيع[90]، وعادة جواب بخير والحمد لله لكل سائل كيف حالك[91]، بالإضافة إلى عادة زيارة المريض، والمشاركة في تشييع الميت.

وبرزت أيضًا في هذه الرواية عادة توزيع الحلوى عند شراء شيء مهم، كالبيت على سبيل المثال[92]، وعادة مباركة الجيران للساكن الجديد بجوارهم وإحضار هدايا له بهذه المناسبة.[93] وظهرت عادة شرب النارجيلة لدى أفراد المجتمع في روايتي "شقة على شاره النيل"[94] و"حمامات بيض ونارجيلة".[95]

وتضمّنت رواية "حمامات بيض ونارجيلة" بعض العادات الحلبية، ولا سيما عادة إقامة صلح بين المتخاصمين، وإقامة دعوة طعام لهذا الصلح[96]، وعادة إرسال باقات الورود في المناسبات.[97]

---

[86] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 32.

[87] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 78-79.

[88] أحمد زياد محبك، *الحكاية الشعبية* (دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1999)، 469.

[89] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 30.

[90] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 36.

[91] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 152.

[92] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 37.

[93] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 66.

[94] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 177.

[95] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 5.

[96] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 55.

[97] محبّك، *حمامات بيض ونارجيلة*، 105.

وتضمّنت رواية "الكوبرا تصنع العسل" عادة لبس السواد في الجنائز.[98] وكنا ذكرنا خلال حديثنا عن المأكولات والمشروبات عادة تناول القهوة الصباحية، وأكل المامونية في مناسبات الأفراح، ولا سيما الزواج، وتقديم وجبة عش البلبل في مناسبات الأفراح والأحزان. ومعظم هذه العادات يؤكد للمتلقي تماسك أفراد المجتمع الحلبي وتعاونهم في السرّاء والضّراء، كما يؤكّد أن ثمّة علاقة وثيقة بين هذه العادات والتقاليد الحلبية والدين الإسلامي انعكست على حياة المجتمع الحلبي اليومية، وأثّرت في تنظيم ممارسات أفراده اليومية، ومعظم جوانب حياته، وجعلته يبدو مجتمعًا متماسكًا إلى حدٍّ كبير. فقد بدت علاقات المجتمع الحلبي في عالم محبّك الروائي قائمة على الاحترام والتقدير والتعاون المتبادل بين أفراده.

10. الأغاني

حال المجتمع الحلبي كحال غيره من المجتمعات البشرية في ميل أفراده إلى سماع الغناء والموسيقى، وثمّة أنماط من الغناء والأصوات يميل إليها أفراد المجتمع الحلبي، ويمتاز بها عن غيره من المجتمعات الأخرى. والباحث يجد أن المجتمع الحلبي عامّة يمتاز بأنواع من الغناء خاصّة به، ولا سيما القدود والموشحات الحلبية، بالإضافة إلى المواويل والعتابا وبعض الأغاني الشعبية.

ويلحظ الباحث أن الروائي أحمد زياد محبّك أبدى اهتمامًا ملحوظًا في توظيف الأغاني في عالمه الحلبي الروائي، وأبرز فيه القدود الحلبية والموشحات التي ترتبط بالمجتمع الحلبي على نحو وثيق، وجاء ذكر هذين النمطين من الغناء في رواية "شقة على شارع النيل" وذلك في قول الروائي: "ولكننا نحب الطرب، ولا تنسَيْ القدود الحلبية والموشحات وصباح فخري".[99]

وعني محبّك في بعض مواضع رواياته بذكر اسم المغني وكلمات أغنيته، وبرز من بين هؤلاء صباح فخري مطرب حلب المفضّل، وأم كلثوم وفريد الأطرش ومحمد عبد الوهاب، وفيروز، وصالح عبد الحي. ومن الأغاني التي ذكرها الروائي لصباح فخري مطرب حلب المفضل:[100]

أنا وحبيبي في جنينه
والورد خيم علينا
طلب مني وصاله
يارب استر علينا

ومن الأغاني التي أوردها الروائي في رواياته أيضًا أغنية فريد الأطرش:[101]

الحب لحن جميل يتغنى بين قلبين

يبدو للمتلقي أن الروائي من خلال ذكره لأغاني المجتمع الحلبي الروائي يريد توثيق مدينة حلب روائيًّا في النصف الثاني من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، ويبدو أنّه من خلال هذا التوثيق يريد أن يحفظ صورة مدينة حلب خلال هذه الفترة من الضياع والاندثار، ويقدّمها للقارئ لقارئه المعاصر والمستقبلي على نحو يليق بهذه المدينة العريقة ويليق بثقافة مجتمعها.

11. خاتمة

أولى الروائي أحمد زياد محبّك مدينة حلب في الفترة الممتدة بين النصف الأول من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين في رواياته أهمية خاصّة، وجعلها مسرح أحداث رواياته والمكان الذي تتحرّك فيه شخصياته الروائية. وعني الروائي بتصوير جلّ الأماكن المهمة في مدينة حلب، ولا سيما قلعة حلب، والأحياء المحيطة بها، وساحاتها وحدائقها ومساجدها ومطاعمها وبيوتها القديمة والحديثة.

---

[98] محبّك، *الكوبرا تصنع العسل*، 50.
[99] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 117.
[100] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 125.
[101] محبّك، *شقة على شارع النيل*، 82.

واختار الروائي أسماء شخصيات عالمه الحلبي الروائي من واقع المجتمع الحلبي، وبدا على هذه الأسماء ارتباط جلّها بما يمكن تسميته بمنظومة الأسماء المستحدثة، وكان للمنظومة الاجتماعية والدينية أثر في اختيار بعض أسماء شخصياته.

وبدت شخصيات الروائي في عالمه الحلبي أكثر ميلًا للبس الأزياء الغربية؛ فظهرت جلّ النساء حاسرات الرأس يلبسن ألبسة ملوّنة تبدي أنوثتهنّ، وبدا معظم الرجال يلبسون البدلة ويضعون ربطة العنق. ويبدو أنّ الروائي أراد أن يضع المتلقي أمام التغييرات التي حصلت على ألبسة المجتمع الحلبي في نهاية القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، ولا سيما فئة الموظفين الذين يتوجّب عليهم نمط معيّن من اللباس.

وعلى الرغم من الأزياء الغربية الغالبة على شخصيّات عالم محبّك الحلبي الروائي فإنّ المجتمع الحلبي بدا يدين بالدين الإسلامي، ويمارس شعائر هذا الدين، وقد انعكس هذا المعتقد على عاداته وتقاليده في حياة أفراده اليومية، وبدا نتيجة هذا الاعتقاد متماسكًا متعاونًا في السرّاء والضراء.

أبرز الروائي كثيرًا من الأطعمة والأشربة الحلبية، وبرزت القهوة من بين المشروبات على نحو لافت للنظر، كما برزت المامونية من بين الأكلات الشعبية المشهورة في مدينة حلب.

وتضمّن عالم محبّك الحلبي الروائي بعض الأمثال التي يتداولها أهالي حلب فيما بينهم، وتضمّن أيضًا أشهر المغنين الذين يستمع إليهم المجتمع الحلبي.

وبدا الروائي محبّك في كلّ ما ذكره في عالمه الحلبي الروائي عن أمكنة حلب واقعيًّا على نحو لافت للنظر، حيث رسم هذه المدينة في رواياته على نحو يطابق الواقع، وبدا أيضًا واقعيًّا إلى حدٍّ بعيد في رسم المجتمع الحلبي وما يتصّل به من خصائص ترتبط بحياته، فظهرت هويته على نحو يقارب هوية المجتمع الحلبي في الواقع.

ويمكننا القول: إن اهتمام الروائي أحمد زياد محبّك بمدينة حلب وواقعيّة تناوله لها ولأهلها في عالمه الروائي يشي برغبة هذا الروائي بتوثيق ما تمتاز به هذه المدينة في الفترة الممتدة بين منتصف القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين، وهي الفترة المعاصرة لحياة الكاتب، بغية تقديم الصورة الحقيقية التي تعيشها حلب ويحياها الإنسان الحلبي للمتلقي المعاصر من جهة، وللأجيال القادمة التي ستقرأ رواياته من جهة أخرى. ويبدو أنّه يخشى ضياع صورة حلب نتيجة الحرب والكوارث التي يمكن أن تنال منها فحرص على توثيقها روائيًّا.

ولكن لا بد من القول أيضا إن معظم تلك الجوانب التوثيقية عن المجتمع في حلب قد جاءت متلاحمة مع بنية العمل الروائي، وكانت موظفة لخدمة الموقف، أو توضيح الشخصية، أو التعبير عن حالة، ولم تكن غاية في ذاتها، فلم تظهر نائئة، أو محشورة حشرًا، وربما كانت هناك بعض التفاصيل في وصف الأطعمة ونوعها وكيفية صنعها، أو توصيف المكان، وقد يبدو هذا التوصيف ممَلًا لمن يعرف المدينة، أو هو من سكانها، ولكنه يبدو مفيدًا لمن لا يعرف المدينة، ومن هنا تبرز القيمة التوثيقية والمعرفية، وفي الحقيقة لا تكفي تسمية المكان أو الطعام أو الزي من اللباس ولا بد من الوصف لوضع القارئ في جو العمل الروائي وتحقيق المعرفة والانفعال.

Finansman/ Grant Support
Yazar(lar) bu çalışma için finansal destek almadığını beyan etmiştir.
The author(s) declared that this study has received no financial support.
Çıkar Çatışması/ Conflict of Interest
Yazar(lar) çıkar çatışması bildirmemiştir.
The authors have no conflict of interest to declare.

Kaynaklar

Alahmad, Mohamad. "Halep Biyografisi" Romanındaki Kültürel Kimlik Delilleri ve Dönüşümleri. *Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi.* 11 (Haziran, 2020): 97-116.

Alahmad, Mohamad. "Kuranda Hz. Süleyman Kıssasının Sunumunna Diyaloğun Etkisi". 6. Uluslararası Multidisipliner Çalışmaları Kongresi. (26-27 Nisan 2019, Gaziantep, Türkiye).

Alahmad, Mohamad. "Modern Arap Şiirinde Halep İmajı", *Bayburt Üniversitesi İlahiyat Fakültesi Dergisi* 12 (Aralık, 2020): 85- 112.

Alepris, R. M. *el-İ't-Ticâtu'n-Nekdiyye fi'l-Karni'l-'İşrîn*. çev. George Tarâbîşî. Beyrut: Meşûrâtu 'Uveydât, 1965.

Bahrâvî, Hasan. *Bunyetu'ş-şekli'r-rivâ'î*. Beyrut: el-Merkezü's-sekâfî'l-'Arabiyyi, 2009.

Esedî, Hayru'd-Din. Ehyâu Halep ve Esvâkuhâ. Dimaşk: Menşurât Vizâretu e's-Sakâfe, 1984.

Feysal, Semar Ruhî. Er-Rivâyetü'l-Arabiyye el-*Binâ'u ve'r-Rüyâ.* Dimaşk: MenĢurâtu Ġttihadi'l-Küttabi'l-Arab. 1995.

Hamevî, Yâkût. *Mu'cemu'l-Buldân*. Beyrut: Dâr Sâdir, 1977.

İbnu'l-Adim, Ömer b. Ahmed b. Hibetu Allah. *Zubdetu'l-Halebi min Tarihi Halep*. thk. Halil Mansur. Beyrut: Daru'l-Kütübi el-İlmiyye, 1996.

Lhamdânî. Hamîd. *Bunyetu el-Nas el-Serdî min Menzûr el-Nakd el-Edebî*. Beyrut: el-Merkez el-Sekāfî el-Arabî, 1991.

Muhabbik, Ahmed Ziyâd. *el-Hakâyetü'l-Şa'biyye. Dimeşk*: İttihâdü'l-Küttâbu'l-Arap, 1999.

Muhabbik, Ahmed Ziyad. *el-Kobra Tesna' el-Asel*. Halep: Menşuratu dar el-kalem elarabi,1996.

Muhabbik, Ahmed Ziyâd. *Hemâmât Bîd ve Nârcîle*. Halep: Daru'l-Furkân, 2011.

Muhabbik, Ahmed Ziyad. şekka ala Şari'n-Nil. Dimeşk: Daru'l-Emel el-Cedîde, 2018.

Taan, Sulaiman. "el-Sîratu'z-Zêtiyye ve Mufredêtu'l-Haviyye el-Sakâfiyye Rivâyetu'l-Ahzêm Nemûzacen". *Çukurova İlâhiyat Fakültesi Dergisi* 19/2 (Aralık, 2019): 587-602.

'Uceylî, Şehlâ. "el-Nas el-Rivâî ve Devâl el-Haviyye el-Sakâfiyye". *Mecelletu Alêmêt* 14/53 (Eylül, 2004): 439-453.